مُكوناتُ الخِطابِ الرّحلي فِي رواية بَينَ بَغدادَ وظِّلِي

م.م. تورين أحمد يوسف
قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساسية، جامعة دهوك، العراق
toreen.ahmed@uod.ac

م. د. بسام خالد محمد
قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساسية، جامعة دهوك، العراق
bassam.mohammed@uod.ac

الكلمات المفتاحية: الرحلة، الخطاب الرحلي، الرواية الرحلية، السرد، الحوار، الوصف، المعرفة.

كيفية اقتباس البحث

يوسف ، تورين أحمد ، بسام خالد محمد ، مُكوناتُ الخِطابِ الرّحلي فِي رواية بَينَ بَغدادَ وظِّلِي ، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، أيلول ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:٥ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Components of the travel discourse in the novel Between Baghdad and My Shadow

M.M. Turin Ahmed Yousef
Department of Arabic Language,
College of Basic Education,
University of Duhok, Iraq

Dr. Bassam KhaledMohammed
Department of Arabic Language,
College of Basic Education,
University of Duhok, Iraq

Keywords : journey, nomadic discourse, nomadic novel, narrative, dialogue, description, knowledge.

How To Cite This Article
Yousef, Turin Ahmed, Bassam KhaledMohammed, Components of the travel discourse in the novel Between Baghdad and My Shadow , Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, September 2025,Volume:15,Issue 5.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

In this research paper, we aim to study a new style of writing styles shrouded in the contemporary novel, termed (the nomadic novel) through the novel (Between Baghdad and My Shadow) by the expatriate Iraqi writer (Wafa Abdul Zaraq), and this novel is considered one of the nomadic novels where its hybrid narrative type, which derives its artistic and objective themes from the travel literature, as it - the journey - a narrative category that shows us the conditions of the peoples and peoples to which travelers travel and live with them, and convey with him their history and civilization, and show us the civilization and culture of societies On the contrary, the traveler in this narrative work is not only a narrator, but he is a historian, geographer, sociologist and ethnographer at the same time, in addition to the value of the novel, its aesthetics and its subject, as it presents most of its contents and topics in a literary style that rises to the level of artistic fiction, and diversity in its narrative methods, and its narrative elements, as it is rich in its rhetorical and semantic

material, and combines between the folds of its texts fun, imagination and interest for the reader at the same time.

الملخص: –

نروم في هذه الورقة البحثية الى دراسة نمط جديد من أنماط الكتابة تكتنفها الرواية المعاصرة، يصطلح عليه اسم (الرواية الرحلية) من خلال رواية (بين بغداد وظلي) للكاتبة العراقية المغتربة (وفاء عبد الزراق)، وتعتبر هذه الرواية من الروايات الرحلية حيث نوعها السردي الهجين الذي يستمد ثيماته الفنية والموضوعية من أدب الرحلة، بوصفها –الرحلة– صنف حكائي يبين لنا أحوال الأقوام والشعوب التي يسافر إليها الرحالة ويعيش معهم، وينقل معه تاريخهم وحضارتهم، ويعرض لنا مدنية وثقافة المجتمعات الأخرى وبالعكس، فالرحال في هذا العمل السردي ليس سارداً فحسب، بل هو مؤرخ وجغرافي وعالم الاجتماع والانثوغرافي في الوقت ذاته، هذا الى جانب قيمة الرواية وجماليتها وموضوعها، حيث تعرض جُلّ مضامينها وموضوعاتها بأسلوب ادبي يرتقي الى مستوى الخيال الفني، والتنوع في اساليبه القصصية، وعناصره السردية، كما أنها غنية بمادتها الخطابية والدلالية، وتجتمع بين ثنايا نصوصها المتعة والخيال والفائدة للقارئ في آن واحد.

مقدمة:

نظراً لأهمية الرحلة في النفس الشرقي أولاً، وفي كتاباته وأدبه ثانياً، ولأنها شغلت مكانة مهمة في بعض علوم والمعارف، باعتبارها من أهم الفنون المتجذرة في الثقافة العربية، فهي وسيلة من وسائل الاتصال مع الآخر –الغرب– والمثاقفة معه، لذا اهتم بها العرب قديماً وحديثاُ، وأكثروا من التأليف فيها، فتنوعت بتنوع أسبابها ومقاصدها وبواعثها سواء أكانت العلمية منها أو السياسية أو الدينية أو الأيديولوجية أو الاجتماعية أو الاقتصادية... والخ، وعليه يهدف بحثنا الى بيان أهمية الرحلة في وجدان الكاتب العربي– لا سيما العراقي– وأيضاً الكشف عن مضمرات الخطابات الرحلية في الرواية، أما السبب الثالث هو ابراز مدى قدرة الكاتبات النسويات في كتابة الرواية الرحلية، وليست الرحلة حكراً على الرجل فحسب كما هو معروف عن أدب الرحلات قديماً، لذا وقع اختيارنا على احدى الروايات العراقية التي كتبت في بلاد الغرب للكاتبة العراقية (وفاء عبد الرزاق) بعنوان (بين بغداد وظلي)، فمن خلال قراءاتنا وجدنا أنها تتشكل من بنيات السفر والترحال، وغنية بثيمات الغربة والاغتراب والبحث عن الحقائق، ويمكن عدّها جسرً رابط بين الثقافات الثلاث (بغداد، تركيا، موسكو، باريس).

مشكلة البحث

وتثور إشكالية بحثنا حول: كيف وظفت الكاتبة مكونات الخطاب الرحلي في روايتها؟ ما الخصائص الموضوعية التي تميزت بها هذه المكونات؟ وهل استطاعت الكاتبة ان توفق بهذا الجنس الروائي الرحلي الجديد؟ ومدى اختراق المكونات للمبنى الحكائي في الرواية، وكسر افق توقع القارئ من أجل إيصال رسالتها وخطابها؟.

منهجية البحث

ان النص الروائي وبنياته يبرر أمامنا مشروعية الدراسة ومنهجية بحثه، وللإجابة عن التساؤلات الموضوعية كان لا بُدّ الاعتماد على المنهج الوصفي الذي يسعى الى وصف الرحلة وتنقلات الشخصيات الروائية داخل الفضاء النصي بغية المساعدة في فهم أبعادها واسبابها، مع الاعتماد على المنهج التحليلي في تحليل النصوص من أجل بيان واضاءة الجوانب التي تحتاج الى الكشف والايضاح، وهذا لا يمنعنا من الاستعانة بالمناهج الأخرى التي لها ذات أهمية في الرحلة والرواية كالمنهج النفسي والتاريخي والثقافي عندما تتطلب الحاجة في إيضاح بعض الجوانب التاريخية والثقافية للأمكنة والازمنة المختلفة، فضلاً عن ذلك الكشف عن الحالات النفسية التي مرت بها الشخصيات الروائية، واسباب ودواعي الرحلة.

هيكلية البحث

وتعتمد خطة البحث على مقدمة ومبحثين، المبحث الأول تناولنا فيه الجانب التنظيري لعنوان البحث، أمّا المبحث الثاني نتطرق الى الجانب التطبيقي وكيفية اشتغال مكونات الخطاب الرحلي (السرد، الوصف، الحوار، المعرفة، التخييل، الشعر) في خطابات عينة البحث، وينتهي بخاتمة لاهم النتائج التي توصلنا إليها، مع قائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها.

التهميد/ أولاً: مقاربة تنظيرية

١-الخطاب الرحلي في الرواية العربية:

عُرف الانسان منذ بدء الخليقة بحبه وشغفه الدائم للرحلة والترحال، مرتبط بهما اشد الارتباط، حتى أصبحتا غايته ووسيلته اللاتين تحقق له أغراضه وحاجاته النفسية، حيلته في ذلك حب الاستكشاف والتطلع والمغامرة، واشباع حاجات العقل والنفس والروح والتطلع إلى الآفاق ((فالرحلات منابع غنية بمختلف مظاهر حياة المجتمعات البشرية بما فيها من صور وأخبار ومغامرات ومعارف وعلوم، إنّها خزائن تحفل بالمادة الثرية، لا في مجال الجغرافية أو التاريخ، وحسب، بل تُلِمُ بالحضارة وتمثل تجربة تعكس ضورة الانسان عبر العصور))(الشوابكة، ٢٠٠٨: ص١٧)، وبناءً على هذا فطبيعة الانسان التواقة الى المعرفة وارتياد المجهول، فقد ولد هذا

التفكير في ذهنه أسئلة واستفسارات كثيرة، حاجته الماسة إلى تدوينها، قادته إلى ولادة جنس جديد من الأجناس الأدبية بشكل عام، والسردية على الخصوص، سميَّ بـ ((أدب الرحلة)) أو الرحلات كما يسميه النقاد.

لم نلج في غمار الحكي عن ماهية أدب الرحلات كثيراً، اذ كتب عنها الكثير من المؤلفات والبحوث، إلا اننا سنقدم مفهوماً للتعريف بهذا الأدب، هو ((مجموعة الأثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد)) (وهبة والمهندس، ١٩٨٤: ص١٦). إذن أدب الرحلات هو الأدب الذي يتناول جوانب الرحلة بأكملها الثقافية والحضارية والعمرانية والتاريخية والجغرافية والإنسانية، فهو أدب شامل وفضفاض، يتبنى مؤلفها كل مقومات السفر والترحال بعيداً عن أرض الوطن.

ولنهوض العلوم والمعارف الإنسانية، وظهور نظريات النشوء والتطور، ولتلاقح الثقافات بين الشرق والغرب، ترك ذلك اثر على جميع البنى التحتية للمجتمعات، وكان للأدب النصيب الوافر من هذا التطور، اذ ظهر بعد منتصف القرن العشرين نظريات اهتمت بتداخل وتفاعل النصوص المنتجة عرفت بالتداخل الاجناسي، حيث التمازج بين الشعر والنثر، وكون الرواية من اكثر الفنون الإبداعية قادرة على التلاقح والتلاحم مع الفنون الاخرى كالشعر والقصة والاقصوصة والرسم والنحت والموسيقى.. والخ، أدى الى ولادة جنس روائيٌّ هجين قائم بذاته أصطلح عليه ((الرواية الرحلية)).

ولأن التعريف هو مدخل كل تصنيف، لذا لا بُدّ من الإشارة الى مفهوم الرواية أولاً، باعتباره المفهوم الذي يحتوي على المنظومة الفكرية والابستيمية لمصطلح الرواية الرحلية، فالأول هو ((شكل أدبي يرتدي أردية لغوية تنهض على جملة من الأشكال والأصول، كاللغة والشخصيات والزمان والمكان والحدث، يربط بينها طائفة من التقنيات كالسرد والوصف والحبكة والصراع وهي سيرة تشبه التركيب بالقياس إلى المصور السينمائي بحيث تظهر شخصياتها الروائية من أجل أن تتصارع طوراً وتتحاب طوراً آخر لينتهي بها النص إلى نهاية مرسومة بدقة متناهية وعناية شديدة))(مرتاض، ١٩٩٨: ص٢٤) . فالمفهوم قدم جملة من الخصائص الفنية والموضوعية التي تتميز بها الرواية عن باقي الاجناس الأدبية الأخرى.

اما الرواية الرحلية كجنس أدبي حديث لم نجد لها تعريفاً جامعاً مانعاً لغيره من التعاريف، فهي في ابسط مفاهيمها ((نوع أدبي نثري هجين، تشكل بفعل عملية التجنيس السردي التي طالت فن

الرحلة وجنس الرواية معاً، ليقدما لنا نمطاً يمتاز بفرادته الفكرية وخصوصيته الإبداعية وتلبسه بالبيئة الحضارية التي ينشأ فيها، وكذا بطابعه الاشكالي، القائم على تعديه لنطاق المعرفة الإنسانية الواحدة، وذلك بين الرواية كفن سردي جمالي تعبيري، والجغرافية كعلم تقويمي وصفي) (بولعسل، ٢٠٢١: ص١٩٧٠).

ومن خلال المفهومين لا نجد أي فاصل بين الرواية والوراية الرحلية، وباعتبار الثاني جزء من الأول، فقد استمد آلياته الفنية وقيمه الشكلية والمضمونية وخصائصه الاسلوبية من الأول.

ما يهمنا في هذه الورقة البحثية هو تناول مفهوم الخطاب الرحلي ومكوناته وتحديداً في العمل الروائي، اذ يرى النقاد أن الحديث عن خطاب الرحلة في الرواية يقتضي في البداية التفريق بين أمرين أو معنيين للرحلة الذي يسير إلى معنى الخطاب الرحلي:

١-المعنى الأول: أن الرحلة هي حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة، كما أشار إليه القرآن الكريم إلى رحلتي الشتاء والصيف من تجار قريش آنذاك ((لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف)) (قريش: ١)، وتكاد تجمع المعاجم اللغوية المعنى نفسه.

٢-المعنى الثاني هو أن الرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة/ الكاتب أحداث سفره وما شاهده، وما صادفه وعاشه من أحداث، مازجاً ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم. وهو ما يتطلب من الرحالة ثقافة واسعة تؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة.

ان التفريق بين المستويين ضروري لتحديد مجال الاهتمام والبحث، فالرحلة بالمعنى الأول لا يهمنا هنا بقدر الرحلة بالمعنى الثاني التي تعني الكتابة والخطاب، وهذا لا يمنع من القول بوجود العلاقة بينهما، بل أن العلاقة قائمة كون فعل الكتابة يستلزم القيام بالسفر والترحال، ولا يمكن تصور كتابة رحلية دون رحلة إلا في الرحلات الخيالية كرسالة الغفران لأبي علاء المعري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسي، والتوهم للحارث المحاسبي.

وعليه فالرحلة – بالمعنى الثاني- هو ما أطلق عليها سعيد يقطين ((خطاب الرحلة)) ويعرفها بأنّها ((عملية تلفظ لفعل الرحلة بينما المعنى الأول هو الرحلة ذاتها، ولهذا فإن خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى الى مواكبتها من البداية الى النهاية))(يقطين، ١٩٩٣: ص١٦٥).

٢-مكونات الخطاب الرحلي:

بعد الإشارة الى بناء الخطاب في الكتابة الرحلية، ينبغي معرفة مكونات خطابات المؤلف التي يرتحل اليها وفيها ويقدمها لقارئ أو المتلقي، وما تحويه من مسائل حضارية ومشكلات إنسانية،

وفي علاقة هذه الإشكاليات المعاصرة مع الهوية والثقافة وأنساقها، بالتالي تفاعلها مع الهويات والثقافات الأجنبية/ الآخر. لذا نشير إلى مكونات هذا الخطاب التي حصرها النقاد في:

١-المعرفة: تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المنتوعة وباتجاهات مختلفة، فنجد فيها ما هو ديني أو تاريخي أو جغرافي أو سياسي أو اجتماعي، وكلها تصب في قالب أدبي فني، مما يجعل الرحلة قبلة للعديد من الباحثين والمؤلفين مختلفي المشارب والثقافات، من أجل اكساب المعارف التي تهمهم(عبد الجبار وآخرون، ٢٠٢٠: ص٢٦٠).

٢-السرد: لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن ان تستغني عنه ما دامت تنقل الى المتلقي أحداثاً وأفعالاً قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الاحداث والافعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها(عبد الجبار وآخرون، ٢٠٢٠: ص٢٦١).

٣-الوصف: السرد والوصف نمطان خطابيان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن، وهذا الأخير يتطلب الدقة في الملاحظة والتصوير سواء أكان الوصف اشخاصاً أو فضاءً أو أشياءً... الخ(عبد الجبار وآخرون، ٢٠٢٠: ص٢٦١).

٤-الحوار: الذي يعتبر أحد مقومات الخطاب الرحلي لكونه مرتبطاً بتقنيات السرد، وهو مكون هام لان الرحالة يقطع المسافات ويقابل الأشخاص، مما يستدعي ضرورة التخاطب معهم(عبد العليم، ٢٠١٨: ص٢٠).

٥-التخييل: وهو الصياغة التعبيرية للغة التي تجعل خطاباً ما خطاباً أدبياً(عبد العليم، ٢٠١٨: ص٢٦).

٦-الشعر: نجد ان كثيراً من الرحلات تطفح بالعديد من الاشعار المختلفة المضامين، والمتفاوتة في القيمة الفنية، قد تكون من ابداع الرحالة او من إبداع الاسلاف أو المعاصرين، ويوردها من أجل امتاع القارئ والمتلقي (عبد الجبار وآخرون، ٢٠٢٠: ص٢٦٢).

وعليه نستطيع القول أن الرحلة خطاب ينجزه مرسِل ينتج ملفوظاته ولغته وفق قواعد وآليات، ووفق غايات ومقاصد محددة بالمرسل إليه(يقطين، ٢٠٠٦: ص٢٠٠)، وأبرز ما يميز هذا الخطاب الذي يمكن عده خطاباً تواصلياً هو التنوع في الأسلوب الذي تتقاطع فيه عناصر التخييل والرموز، من السرد القصصي الى الحوار الى الوصف وغيره، إنه يمثل لوناً أدبياً فريداً يجمع بعض خصائص السرد الروائي، ويفيد من أدوات فنية مهمة كالصورة والقصة مما يجعله ميداناً فنياً ثراً، ويتيح له ذلك إيصال رسالته على اختلافها وتنوعها(سديرة، ٢٠١٨: ص١٨٤)، وبهذا تغدو الرواية الرحلية كخطاب أيديولوجي له بواعثه وأهدافه ورسالته.

ويؤكد النقاد والدارسون على سردية الرواية الرحلية، بعد أن وجدوا حضور الرحلة في النصوص الأدبية كنعصر مكون لبنيتها الدالة ((تخضع لقانون الخطاب الشائع من مرسِل ومُرسَل ورسالة (سارد، سرد، مسرود له) إلى جانب اخلاصها لتقاليد الكتابة والتأليف والافتتاح والاختتام))(مودن، ١٩٩٦: ص ٣٠)، ثم ما لبث أن أصبحت نوعاً أدبياً قائماً بذاته، عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات، وبالتالي انتقلت الرحلة من كونها فعلاً يتجسد بحدوث الأفعال في زمان ومكان معينين الى اعتبارها فعلاً محكياً يختزل تجربة لفعل السابق ويدونه في شكل محكي بضمير المتكلم))(حليفي، ٢٠-٦: ص١٢٠)حين يسرد عن رحلته أو الغائب.

٣-رواية بين بغداد وظلي

كاتبة الرواية هي العراقية المغتربة (وفاء عبد الرزاق) نخلة العراق التي استطاعت بخيالها الواسع ان تسافر في ابداعها الروائي الرحلي التنتقل بين عوالم حضارية (بغداد وتركيا وموسكو وباريس)، وبخبرتها القذة في عالم الخيال استطاعت جمع الحضارات العريقة في سطور روايتها الرحلية بقوة وتمكن، نشرت هذه الرواية في سنة ٢٠٢٤ م عن (دار افاتار) للطباعة والنشر في مصر، وتدور احداثها حول شخصيات من شعوب وثقافات الأربع، الذي جمعتهم الكاتبة لينقلوا لنا وقائع ومشاهد للبلدان التي ارتحل اليها الشخصية الرئيسة الصحفي العراقي، وتشظى الى عدة شخصيات (مناضل/ قاسم) بفعل تشظي الواقع العراقي المرير الذي يعيشه الفرد داخل وطنه وخارجه، وتستهل الرواية بالتجول في شوارع ومناطق بغداد وتصوير مواقع زيارة الصحفي، واثناء تجواله يلتقي بشخصيات جمعهم من بيوت الصفيح والعشوائيات في احدى المناطق السكنية البغدادية، وتصبح عائلته فيما بعد، وسرعان ما تتغير الاحداث فيبعث من قبل المجلة التي يعمل بها الى تركيا فموسكو حيث معقل الحضارة والثقافة والأدب، ثم باريس حيث العمران والتطور، اما خطاب الكاتبة ورسالتها من هذه الرواية واختيارها للصحفي والرحلة كبناء للعمل السردي، جاء بحكم التزام الكاتب بالدفاع عن قضايا بلده، متخذة من الصوت الذكوري/ الصحفي الذي يستمد هيمنته من الذاكرة الانثوية بريق امل ومنقذ لمستقبل عراق جديد، اذ بمقدور فكره وقلمه عرض الحقائق والوقائع، والدفاع عن المظلومين والمشردين من أبناء الوطن، باعتبار ان الصحافة هي السلاح الماضي بوجه الطغاة والمتسلطين، بعد أن قمعوا أصوات الصحفيين لتمرير زيفهم وأكاذيبهم، ونيل مصالحهم الشخصية.

ثانياً: مكونات الخطاب الرحلي في الرواية

في هذا المبحث سنحاول أن نرفع اللثام عمّا هو مضمر في الخطابات الرحلية للرواية، من خلال تتبع مكونات الخطاب الرحلي وآلية تشكل الخطاب السردي، والكشف عن الخلفيات المعرفية

والدلالية والسوسيولوجية لتشكل مرجعيات هذا الخطاب، والترصد لدوافع وبواعث الرحلة عند الكاتبة (وفاء عبد الزراق).

١-السرد: اتخذت السرد أشكال متعددة تتداخل بين ما هو سرد متتابع أحياناً عند القيام بالرحلة، ومتقطع ومتناوب في سرد الأحداث والأفعال واسترجاع الذاكرة أحياناً أخرى، والأول نجده في مستهل الرواية اذ تتخذ الكاتبة من بغداد نقطة انطلاق لها، ومنبراً خطابياً لإيصال رسالتها للقارئ، حيث تتبنى خطابات متعددة منها سياسية ودينية واجتماعية وأيديولوجية في ابداعها الروائي، فبغداد معقل الإنسانية وبناء الحضارة، الذي امتلأ التاريخ بذكرها العبق وسيرتها العطرة، فالشخصية الرئيسة الصحفي يسرد لنا حكايات ممزوجة بخيال واسع فذ، يأخذ دور الرحال والريبورتاج والمصور، بلغة ساخرة يسخط من الوضع الراهن في بغداد: ((وينظر من خلال النافذة الى مدينة كل ما فيها مؤامرة، بينما المطر يبلل كل شارع فيها، لهذا اهتزت الأشجار تحت وابل أزيز الرياح خاضعة لصوت الأزيز، وعلة المطر، المطر يصبح علة على الفقراء، ونزهة لأصحاب القصور، فالشمس هي ذاتها، تلمع هناك، وتحرق هنا، وكما أية شفة، محملة بالعتاب هنا وبالقبلات هناك، كل ما وقع عليه بصره كان سيئاً...))(الرواية: ص٢١)، فلفظي (المؤامرة والأزيز) كشفتا عن دوافع الهجرة والرحلة فيما بعد، فهو محاط بالمؤامرات والمخاطر، وكأن شيء ما يقبض على صدره ويضيق عليه أنفاسه، قد يكون مصاب بعدوى الهموم والاحزان، ووضع العراق نحو الأسوأ.

ثم يعود السرد يطرح لنا قضية الفقر والعوز التي يعاني منها العراقي على مر السنين: ((فضلتُ الرجوع الى داري مشياً على الأقدام مررتُ بأرامل وعجائز يفترشن الطريق، بعضهن أخفين وجوههن ومددن أيديهن عفة وتعففاً، والبعض أمامهن حلوى منزلية صنعنها من كرم الدولة لهن (المؤونة) كرم شحيح قاسي الانصاف))(الرواية: ص٢٧). تنتقد الكاتبة وضع البلد من خلال النسوة (الأرامل والفقراء) اللاتي فقدن أزواجهن وأولادهن جراء نيران الحروب والطائفية منذ عقود، وتوجه ضربة قاضية للبرلمان العراقي وما يقطره من خيرات الأرض على الشعب، متمثلة بـ(بالحصة التموينية).

وينمو السرد فيدخل الصحفي الى المنطقة الخضراء موجهاً خطاباً ساخراً للصحفيين الذين يراوغون في نقل الحقائق والوقائع للناس: ((صحفيو المنطقة الخضراء، ببغاوات يرددون ما تُملى عليهم من أخبار في الهاتف النقال، غير ما يجري خلف الأسوار، ما الذي ينقله الصحفي الساكن بفندق ضخم وحماية مشددة؟ لا ينظر لاستفهاماتي، ويخشى التقرب منها، يصم أذنيه يُغرق عينيه بالقتامة، وتحاشى حاسة الشم))(الرواية: ص٣٥)، فالصحافة بعد أن كانت رسالة

تخدم بها الإنسانية أصبحت وسيلة لكسب الأموال في العراق، فلكل صحفي سياسي خاص يغدق عليه بهبات الشعب، ويتحدث بلسانه كأنه حيوان ناطق فقط، لا يملك إحساس بالمسؤولية تجاه أبناء جلدته.

يتجول الصحفي وينتقل بين أزقة وشوارع ومناطق بغداد لينقل لنا صوراً حياً ومشاهداً واقعية لما يحصل في بغداد من ظلم واضطهاد لشعبه، ثم يتتابع السرد وبسبب ظروف عمله كصحفي ومراسل لمجلة ستكون رحلته القادمة إلى (موسكو)، اذ يقول: ((حتى أفقت على رنة الهاتف من رئيس المجلة التي سأعمل كمراسل لها خارج العراق، لا أعرف كيف حصل على هاتفي، أخبرني بأنه قد هيأ تذكرة السفر، وحجز لي في إحدى ضواحي مدينة موسكو.... رحلة من بيوت القهر إلى (موسكو) في فرصة لا تعوض بثمن...))(الرواية: ص١٤٣). نقطة تحول أخرى، او لنقل ارتحال من منفى الى منفى آخر تخبرنا به الرواية حين يفرض على الصحفي السفر الى موسكو مستبدلاً منفاه في وطن القهر الى منفى بعيداً عن الاهل والاحبة(السكاف، ٢٠١٤: ص٢٥٥).

يأتي الترحال الى موسكو فيما يقارب المائة صفحة من التجوال والترحال داخل بغداد والحديث عنها، مروراً بتركيا ((لم اعتد السفر بالطائرات، كل حدود سفري كانت في الحافلة أو القطار وسيارة الأجرة، حمداً لله أنها رحلة مسائية، من بغداد إلى تركيا، انتظاراً لأربع ساعات ثم التوجه إلى موسكو))(الرواية: ص١٧١)، ويتشبث بأمل شحيح علّه يلاقي ضالته بعد رحيله عن بلاد الألم وبيوت القهر.

ثم يتتابع السرد فيحط رحاله في وجهته القادمة (باريس): ((أما رد السيد مالك يكون دائماً بصيغة الأمر (حاول أن تنهي موضوع موسكو فقد حجزت لك في باريس) الرؤساء يأمرون من خلال كراسيهم، لا يدرون ما نعانيه وخاصة لحظة الوداع المرّة، قريباً سأكون موزعاً بين مَن أحببتُ هنا، ومَن تركتُ هناك))(الرواية: ص٢٨٤). طبيعيٌّ أن يكون للسفر عواقب تلازم المسافر على مدى الطويل، منها شوقه لأحبته الذين تركهم، وكذا حبه لأناس قابلهم وتعرف عليهم في محطته الجديدة وكان لهم أثر واضح عليه.

أما السرد المتناوب نجده في ثنايا الرحلة الروائية، عند سرد أحداث مر بها الفرد العراقي، اذ يسقط الذاكرة الجمعية على الفردية في الحكي عن أحداث مظاهرات (ثورة تشرين) سنة (٢٠١٩م) لشرفاء من أبناء الوطن، احتجاجاً على انتشار الفساد الإداري والمالي والبطالة، وتردي الأوضاع الاقتصادية للبلد، فضلاً عن استشهاد العديد من الصحفيين والناشطين الابرياء الذين دافعوا عن قضية شعبهم: ((سأبذل جهداً كبيراً لإيصال صوتي الحر للقارئ، وأتمنى أن يفعل الكثيرون مثلي كي لا يبقى العراق من قائمة الدول المعادية للصحافة والصحفيين الاحرار

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٥ المجلد ١٥/ العدد ٥

وقد شهد مجزرة بحق الاعلام، وبالذات منذ انطلاق المظاهرات التي عنت العراق ومناطق الوسط والجنوب، فقد اعتبر شهر أكتوبر، من الشهور المهمة، وفقد العشرات من الصحفيين والناشطين المدنيين، سواء على يد القوات الأمنية أو الجماعات المسلحة))(الرواية: ص٦٥)، اذ تنشأ عذابات الانسان من الوعي بذاته في ظروف موضوعية سياسية واجتماعية تقف حائلاً دون تحقيق الذات بالصورة المرجوة(يوسف، ٢٠٢٢: ص١٠٥).

يتداخل السرد المتقطع وتزداد الحبكة السردية، ويأخذنا الى سنة (٢٠٢١م) ليكشف عن حصيلة أحداث أخرى أكثر إيلاماً وقسوة عمّا جرى في مستشفى (ابن الخطيب) في بغداد من زمن (كورونا) التي راح ضحيته مئات المرضى والعاملين: ((يرجعون لمناصبهم ثانية، وكأن الأرواح التي زهقت في مشفى للعلاج من (كوفيد) لا قيمة لها، وستمر القضية كما مرت سابقتها، وننسى وينسون، اثنان وثمانون قتيلاً، وعشرة جريحاً، حسبما ذكرت التقارير:

-إن انفجار أسطوانة أوكسجين في قسم العناية الفائقة الذي يرقد فيه المرضى الموصولون بأجهزة التنفس زغير قادرين على الحركة، هو ما أدى الى اندلاع الحريق))(الرواية: ص٦٥)، انّ الحصيلة النهاية قدمت أعداد الموتى وأسباب الحدث المأساوي كانت ضائعة بين المصداقية والتلفيق.

وسرعان ما يعود السرد الى (ثورة تشرين) للدفاع عن قضية غيره من الإعلاميين الشرفاء، كاشفاً عن حقيقة مصيرهم المجهول في العراق: ((سأكتب معلناً عن الهجمة الإعلامية ضدنا، قطع أرزاقنا وتهديد مصيرنا ومصير الكثير من الإعلاميين ما زال مجهولاً))(الرواية: ص٦٦). الكاتبة لم توجه خطابها لفئة معينة فحسب، بل نؤول خطابها أن كل الفئات المثقفة النبيلة معرضة للخطر داخل العراق، ويجب الدفاع عنهم وعن حقوقهم ما داموا في خدمة شعبهم والذود عن حقوقهم، فالضمير الحاضر/ المتكلم يحيلنا الى تجليات هذه الذات في الخطاب الرحلي ((فالكتابة بضمير المتكلم تعمق الحدث أكثر وهي بدورها تطلب ان يكون الكاتب عملياً ودقيقاً فيما سيكتبه بشكل أكبر وسيجبره هذا الضمير على أن يكون عميقاً في كل أفكاره))(مدخلي، ٢٠٢٤: www.alriyadh.com) ورؤاه حيث التعمق في نقل الوقائع من أساسيات الخطاب الرحلي، وهذا ما وجدناه في نصوص الكاتبة.

٢-**الوصف:** يعرف بأنه ((نشاط لغوي يمثل باللغة الأشياء والأشخاص والامكنة وغيرها، وهو أسلوب من أساليب القصة يتخذ أشكالاً لغوية))(القاضي وآخرون، ٢٠١٠: ص٤٧٢)، ما دام بحثنا عن الرحلة ومكونات خطابها من الراجح أن يكون للوصف فضاء شاسع بين نصوصها

Journal Of Babylon Center For Humanities Studies 2025 Volume :15 Issue : 5
(ISSN): 2227-2895 (Print) (E-ISSN):2313-0059 (Online)

الروائية، حيث الرحلة قائمة على وصف الأشخاص والزمان والمكان والمعالم الحضارية والعادات والتقاليد، وكل ما تقع عليه وتشاهده عين الرحالة.

وبعد قراءاتنا للرواية وجدنا أن الكاتبة اهتمت بوصف الشخصيات والأمكنة والأزمنة، ربما يعود ذلك إلى رغبتها في تعريف القارئ بالفضاءات التي يجهلها بالنسبة إليه، ورحلته الحافلة بالغرائب والأسرار، فلكل فضاء بواعثه وغاياته، فضلاً عن رسالاته وخطاباته.

الا ان المعجم اللغوي نجده يسير في اتجاهين متعاكسين فالاتجاه الأول مبني على لغة مشحونة بدلالات القهر والوجع التي تنم عن ضنك العيش كما في العراق، والاتجاه الثاني قائم على لغة ثرية بدلالات الخصب والرغيد كما هو الحال في موسكو وباريس، ونجد ذلك في وصف الفرد العراقي: ((حين وصلنا وجدناهم يمشون على الأرض حفاة، وبشراتهم ازرقت واحمرت مثل خبز محروق في تنور الحياة... لفتت انتباهي شابة في العشرين... كانت غاية في الجمال، بيضاء احمرت وجنتاها من وهج السموم... في عينيها كل أسئلة التيه والاستغراب والقهر، نظرت اليّ نظرة مليئة بالأسئلة))(الرواية: ص٧٩)، فـ (حفاة/ ازرقت/ احمرت/ خبز محروق/ تنور الحياة/ وهج السموم/ التيه والاستغراب والقهر) كلها صور واقعية محمولة على دلالات القهر والظلم والفقر والعوز الذي لحق بالشعب العراقي ابان فترات طويلة.

وفي مقابل ذلك نجد لغة تزخر بألفاظ جميلة وصور رائعة عند وصف الشخصيات الأجنبية التي تكشف لنا عن العيش الكريم الذي ينعم به الانسان في وطنه، اذا يقول السارد: ((فتحت لنا امرأة عجوز كانت كما تخيلتها، بهندامها الجميل الزاهي، وجمال لم يبصم عليه الزمن شحوباً))(الرواية: ص١٤٨) ، فالزمن وآفاته لم يلقِ اعبائه على هندام العجوز، فتعب السنين يشحب وجه صاحبه وهذا لم يجده الصحفي في أناس التقى بهم اثناء رحلته الى بلاد الغربة، ويصف لنا الرجل لوكا قائلاً: ((وعرفت اسم هذا الرجل الأنيق لوكا))(الرواية: ص٢١٠) ، فالأناقة جاءت لتعبر عن شخصية هذا الرجل سواء في طريقة تعبيره او أسلوبه او شخصه، فجميعها تصب في عيشه الرغيد.

ونجد مثل ذاك التباين أيضاً حين يصف الرحالة الأماكن، ففي بغداد يذكر: ((سكن قرب العجوز ذات الحفيدين اليتيمين، بدار خربة، هي منطقة كاملة الآن يسكنها آلاف العراقيين من ذوي العوز))(الرواية: ص٥٧) ، وفي موسكو يقول: ((بعد عناء وصلنا لدار تقع في شارع ضيق، لا يشبه الأزقة القديمة في العراق، الفارق بينهما أنها مصنوعة بدهان أحمر وأبيض، وبعضها أزرق وأبيض، وأغلبها بتدرج اللون الزهري، الزقاق نظيف وأصص الأزهار أمام كل باب، إضافة الى الزهور المعلقة على كلا الجانبين لكل باب، لوحة فنية كأننا في حديقة وليس بزقاق

ضيق))(الرواية: ص١٨٤)، تحاول الكاتبة بهذا النص ان تعقد موازنة بين بغداد وموسكو عبر الأماكن التي شاهدها الرحال، وجاء هذا من خلال الألوان والازهار الزاهية المريحة للعين والنفس.

فالرحالة لم يصف الشوارع والأروقة فحسب، بل يصف العديد من المتاحف وهذا ما نجده عند وصف (متحف تريتياكوف) المتحف الروسي للفنون التشكيلية، يقول: ((أحد أهم المتاحف في العالم، يقع في شارع (لافروشينسكي) وسط موسكو....البناء لم يكن شاهقاً، وكان امتداده عرضياً، بتدرج اللون الطوبي والأبيض والأسود، وأبوابه على شكل أقواس معمارية... يحتوي المتحف على آلاف اللوحات، ويضم لوحات لفنانين كبار مثل أندريه روبيلوف، الكسندر إيفانوف، فاسيلي سوريكوف.... وفيه الكثير من الفن القديم والمعاصر، يحتوي قاعات كثيرة بحيث لم يسعفنا الوقت للطواف فيها كلها))(الرواية: ٢١٨)

وفي باريس يصف لنا الرحالة (قوس النصر) بدقة، الذي يقع في شارع (الشانزليزيه) وتحديداً في ساحة (الكونكورد)، ويقدم معلومات حل هذا النصب التذكاري الذي تم بناؤه بتكليف من (نابليون)، وهو من عمل مهندس معماري دنماركي، قائلاً: ((على أقواسه الأربعة منحوتات لفرسان وملائكة وسيدات ورجال، أقام الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى قبراً للجندي المجهول بشعلة دائمة أسفله، منقش عليه بلغة فرنسية، وأسفل البرج منحوتات، وفي أعلاه لجنود ومقاتلين))(الرواية: ص٢٩٧).

أن تباين الوصف من حيث اللغة والسرد اعطى دلالة عن اختلاف العيش بين البلدين، وليس الغاية من هذه الموازنة بيان أن الأفضلية لدول الغرب، أنما لكشف المضمر خلف هذه الجماليات، فقد تمكنت الكاتبة من رفع اللثام عن قضايا وأمور كثيرة يعيشها العراق، عبر لغتها الفنية ورحلتها اللامتناهية، كوسيلة لايصالها الى القارئ، معترفة: ((عالم جميل وسياحي كبير لو استثمرناه لكسرنا طوق عوز الكثير من الأسر، أنا حفيد (جلجامش) أطرد من عملي كوني حقيقياً لا أساوم على كلمة الشرف))(الرواية: ص١٥٩) ، فبمقدور العراق ان يكون افضل الدول، فهو سلسيل اعرق واقدم حضارة عرفتها التاريخ، لكن المساومة عليه من قبل الجهات المتنفذة جعلته يمكث في سبات طويل من الفقر والعوز والمعاناة.

ونجد أنه عند وصف المعالم داخل البلد يقصر السرد وأكثر ما يكون عليه بحدود الصفحتين من الرواية، بينما الوصف الخارجي يتجاوز عشرات الصفحات، وينم هذا عن إهمال تراث وحضارة العراق، بينما في موسكو وباريس –مثلاً– نجد ان جل اهتمامهم ينصب حول حضارتهم وثقافتهم، وخوفهم عليها من الضياع والاندثار فهي هوية الشعوب والأمم.

٣-**الحوار**: يعد الحوار أحد المكونات الرئيسة في الرواية الرحلية الى جانب السرد والوصف، ولا تكاد تخلو رواية من هذا العنصر الذي يسهم بشكل فعال في تقديم الشخصيات للقارئ وتقريب صورتهم، والكشف عن طبائعهم وأسرارهم وطرق تفكيرهم، وتنوعت وتلونت لغات الحوار في الرواية بين حوارات واقعية وفلسفية وثقافية وعجائبية باعتبار هذه الإمكانات الحوارية تدعم موقف الشخصية الروائية تجاه قضاياه ومشكلاته، ونلاحظ ان الحوار في الرواية سار في اتجاهين أساسيين هما الحوار الداخلي والحوار الخارجي، وسنتناول الاتجاهين تحليلا وتفسيراً في الرواية

تظهر الكاتبة (وفاء) براعتها ضمن حوار المونولوج وقدرتها على النفاذ الى أعماق الشخصيات الروائية، والبوح عن مشاعرهم واحاسيسهم واشجانهم وهمومهم، وأبرز سمة برعت فيها هي مناجاة النفس لتعبر الشخصية عن مكبوتاتها، وما يكابدها من ألم ووجع: ((وأود أن أكون صوتي، صوتي الذي أقول له:

– ما أشقاني وأنا أحملك! وليس بمقدوري إلا أن أكونك))(الرواية: ص١٩)، تحاول الكشف عن حقيقة قمع الأصوات في المجتمعات التي تسودها احكام ومقولات جائرة ممن يحاولون كتم الافواه واستلاب الهويات ونشر الخوف والهلع بين ابنائه.

وكذا ترفع الكاتبة اللثام عن حقيقة تسييس الدين لغايات ومصالح شخصية، فتطرح سؤال فلسفي عبر حوار مونولوجي: ((استغربت من سؤال مرق في بالي: هل يغتال الدين مَن يجهر بالحقيقة)(الرواية: ص٢٩)، فالانزياح اللغوي جاء للكشف عمّا هو مضمر في النص الروائي، فالدين من الله لكن ممارسته من البشر، وكلٌ منهم يفسره حسب اهوائه وغاياته، فالنص يحاول محاكاة الواقع البشري الذي لم يعرف سوى الاغتيال والموت لسنوات طويلة.

اما الحوار الديالوج فكثيراً ما يصادفنا في الرواية كونها رحلية، فلا بُدّ ان تلتقي شخصيات تكون حواراتهم محوراً اساسياً في تطور الحكي وتحرك حلبة الاحداث وتفاعل عناصر السرد، وتأتي مثل هذه الحوارات للكشف عن قضايا سياسية او دينية او اجتماعية او إنسانية في متون الرواية، وكثيراً ما تتبنى الكاتبة مثل هذه القضايا الهامة في ابداعاتها على لسان شخصياتها الروائية، اذ نجد لها حضوراً في حوار الصحفي قاسم مع العائلة الروسية التي التقى بها في موسكو:

((سألتني السيدة فاسلي عن سبب قدومي هنا، ومن أي بلد فأخبرتها أنني صحفي، وحضرت إلى موسكو أعمل تحقيقاً عن معالمها، قادماً من العراق... نظر لي السيد لوكا نظرة احترام:

–أنت إذاً من بلد النفط والحرب.

قلت: – وهذه الكارثة: النفط هو سبب كل بلاء العراق وعيون الطامعين به وبثروته من الداخل والخارج))(الرواية: ص٢٣٧). فتحاول الكاتبة من خلال هذا الحوار تكشف لنا عن السبب الرئيس للبلاء الذي لحق بالعراق، كوطن وشعب، الا وهو (النفط)، فبعض النعم نقم على أصحابها، كما هو حال العراق ونعمه التي جعلت منهم بوتقة للمطامع والسرقات.

ولم تكتفي بهذا القدر من الحقائق بل تحاول تسليط الضوء حول قضية هجرة الشعوب ونفي أبنائها الى خارج ارض الوطن وما يحلقهم من معاناة وقهر نفسي فهي تصف هذا الوضع على لسان حال الطبيب الروسي: ((من جهتي تابعت الكلام مع المرافق لي، واغلب العيون تحدجني، عدا الشاب الأشقر، تبسم لي وترك مكانه ليجلس قربي... جلس قربي يتحدث بلكنة واضحة، فقلت له: اذاً تجيد الإنجليزية حدثني بها، فأنا أجيدها.

حسناً، قالها بالعربية وواصل الحديث معي باللغة الإنجليزية عرف نفسه لي:

انا طبيب روسي، اختصاصي الطب النفسي، وتعلمت عدة لغات لأتواصل مع مرضاي بلغاتهم، نعرف عملنا يتطلب الدقة، لو استعنت بمترجم قد لا يصف حالة المريض مثل وصفه لنفسه))(الرواية: ص١٨٠) ، فالحوار يضمر في داخله اوجاع وآلام الفرد وما يمر عليه من ضياع وتشتت واستلاب لهويته وانسانيته داخل وطنه مما يضطر الى تركه وهجرته والبحث عن وطن آخر عله يأويه ويجد فيه ضالته.

٤–**المعرفة**: للرحلة اهداف ودوافع وغايات واحداث ((لذا تزخر بالعديد من المعارف المتنوعة، منها ما هو ديني، وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو ادبي، وما هو اجتماعي.... وغير ذلك، مما يجعل هذه الرحلة قبلة للعديد من الباحثين مختلفي المشارب من اجل نهل المعارف التي تهمهم، ويسعى الرحالة الى افادة القارئ بما يظنه مفيداً له، وهذه المعرفة تخضع لشخصيته وتكوينه الثقافي))(عبد الجبار وآخرون، ٢٠٢٠: ص٢٦٠) من خلال ما يوليه من اهتمام بالمعارف المتنوعة سواء كانت تاريخية ام دينية ام حضارية ام سياسية ام اجتماعية وثقافية.. الخ

يفخر بالعراق من خلال تقديم معلومات جديدة للقارئ حول ابتكارات العراقيين ((العراقيون يحبون هذا اللون –الأزرق– خاصة أنهم أول من ابتكر السيراميك وأعطوه اللون الأزرق، ثم طوروه بإضافة ألوان أخرى، وأول من استعمل الحجر المفخور من الطين، أول من استخدم الطابوق في البناء)) (الرواية: ص٩٤).

يقدم السرد معلومات عن الكرملين بعد ان قصدها الرحالة كثيراً: ((أخذتُ أقرأ في المجلة عن تفاصيل موسكو؛ كلمة الكرملين تعني (القلعة أو المدينة المحصنة، ويوجد في روسيا أكثر من عشرين كرملين، ومن أبرزهم (موسكو كرملين، كازان كرملين، نوفغورد كرملين) غير ذلك، كما

ان الأكثر شهرة في روسيا هو كرملين موسكو))(الرواية: ص١٩٩) ، فالخطاب الرحلي يُعرف القارئ بالكرملين وما تعنيه هذه الكلمة، ويحصي عددها في موسكو، واسمائهم.

وتضعنا الكاتبة أمام كم هائل من المعرفة بعادات وتقاليد شعب موسكو، وما يحمله هذا الشعب العريق من آداب في جوانب شتى منها آداب الزيارة، وإكرام الضيف، والضيافة، اذ نجد في: ((المصعد لاحظت أن السيدة (غالينا) تلهث، وأشارت لابنها بطريقة غريبة عند باب الشقة في الطابق الثاني، لحقته أنا بينما هي وظلي دخلا، علمت سبب الإشارة فأعطيته مبلغاً لشراء باقة ورد كبيرة تليق بأهل الدار.. أخبرته أن يأتينا بأكبر باقة.... من عادة الضيوف هنا التحدث بلباقة ولياقة وبصوت هادئ، لئلا يزعجوا أهل الدار، وما عادتهم أيضاً جلب هدايا للمضيف...))(الرواية: ص٢٢٠-٢٢١).

وعند انتقال الرحلة الى باريس، تنقل الكاتبة معرفة دينية حول اهتمام الفرنسيين بالدين الإسلامي وتكريم المسلمين ممن دافعوا عن فرنسا اثناء قيام الحرب العالمية الأولى، اذ تقول: ((انتقلنا الى المسجد الذي بُني تكريماً للجنود المسلمين الذين دافعوا عن فرنسا خلال الحرب العالمية، يمتاز بمئذنته العالية المزخرفة والمصلى بأعمدته المتعددة، المفروش بالسجاد الأحمر الطويل، كرسي المصلى من الخشب الراقي أهداه الملك (فاروق الأول) ملك مصر، إضافة الى الرواق الواسع))(الرواية: ص٣٧١) ، ومن خلال بحثنا حوله وجدنا ان هذا المسجد يعرف اليوم بمسجد باريس الكبير الذي شُيد في العقد الثاني من القرن العشرين.

ولاهتمام الكاتبة بالثقافة والمثقفين، لم تقف عند حدود تقديم المعرفة الحضارية والدينية والاجتماعية فحسب، بل نجدها تستذكر مثقفيها منهم الكاتب الفرنسي الكبير (البير كامو) في رحلتها الإبداعية: ((اما جستين وتوماس فهما فرنسيان ... كونهما من أصول جزائرية ذكّراني بالجهة المعاكسة، بالكاتب الكبير (البير كامو) فرنسي مولود في جزائر، بادرتُ لنفس الفكرة وتساءلت فيما اذا سلكا مذهب كامو العبثي في باريس ورحما نعيش مع تفاصيل روايته الغريب... إنه لا يهتم للموت، لأنه الحقيقة الوحيدة الصادقة بحدوثها، ويكفي أنه أصغر كاتب نال جائزة نوبل للآداب))(الرواية: ٣٠٨- ٣٠٩)، هذا الكاتب العبثي الذي يحمل الفكر اللامبالي في روايته (الغريب) حيال عبثية الوجود والموت، فضلاً عن الافتقار للحس الأخلاقي، فالكاتبة تحاول ربط أفكار شخصياتها الروائية بالشخصيات الواقعية من الطبقة المثقفة في المجتمع.

٥-**التخييل**: الرواية من الفنون النثرية المعاصرة التي استطاعت ان تواكب التطور الفني ومعايشة الواقع من خلال إضفاء طابع الخيال على سردياتها وتحطيم مسار المحاكاة والتقليد في بنائها، حتى غدت تمتاز بأسلوبها التشويقي الذي يجذب القارئ ويشد انتباهه لتخيليها الواسع

والعميق، يرى الدارسون أن التخييل قائم على الايهام، بمعنى ان الكاتب يصور لنا مشاهده ويعبر عن أحاسيسه من نسج خياله وابداعه، وبالتالي يفيض نصه بالصور التخيلية والتعابير الحسية، فالتخييل اذن هو ((تمثيل وتصوير حسي))(ارسطو، تر: عياد، ١٩٨٧: ص٢٦٢)، وهنا يكمن الابداع النصي فالكاتب يبعث للمتلقي صورة متخيلة من وحي خياله، والأخير يستقبلها ويتصورها في مخيلته.

تستهل الرواية بالدخول في عالم الظلال هذا العالم المشبع بالإيحاءات والمنفتح على دلالات متعددة، حتى تتناسل الظلال في شبكية معقدة من العلاقات والروابط داخل السرد، فتتخذ الكاتبة من الشخصيات والآلات الموسيقية والأماكن التخييلية بؤرة للبحث عن الانسان وكشف قضاياه المسكوت عنها، كل ذلك في تناوب دقيق بين الواقع والمتخيل.

فتتوسل الشخصية بظل البيجامة، الذي يشغل حيزاً في الرواية، وهذا الظل يكبر ويقزم حسب المواقف والأزمات النفسية التي تمر بها الشخصية: ((كانت بيجامتي تسير على أرضية الصالة، كأنّ شخصاً قزماً ارتداها، المشي الصحيح لكن يخط على الأرض نصف متر من كل قدم، الهلوسة؟ لا؛ قلتُ ذلك وأنا أتابع قزماً غير مرئي يدور في الصالة، الأمور تسير رأساً على عقب..))(الرواية: ص٧١)، فالبيجامة والقزم عبّر عن تشظي الذات والعاهات النفسية التي عاشتها الشخصية بحكم الظروف القاسية، وجراء الحروب وما افرزته من ويل وهلاك للانسانية، لذا جاء النص بتخييل فنتازي معبراً عن أحداث مؤلمة وخارجة عن الادراك البشري، من أجل تقريبها للقارئ ومعايشتها.

وتتقدم الرواية وتتخذ من الموسيقى عنصراً هاماً في بناء المعنى والتخييل، فتتخذ الكاتبة من مقامي (الحجاز) و(الهزام) عزف على لحم الانسان المهترئ: ((تخيلت يوماً عزفاً باسم أخي الصغير، هل تتصور العزف عن لحم مهترئ، مرت جثة أمي بين اصابعي على مقام (الحجاز)، انتقلت لأبي المتفحم إلى (الهزام)، فانتفضت كمن بلع جمراً، وتخيل جمراً وانطفأتُ انطفاء الخفت الحزين المقتد بهدوء يلظي لحظاتي))(الرواية: ص٧٠)، فالموسيقى جاءت كوسيلة للتعبير عن موضوعين شغلا بناء الرواية العربية المعاصرة، ألا وهما مجزرة الحياة وإدانة الحروب ونيرانها التي تحرق أبناء الوطن، وكذا الكشف عن النفس الحزينة وما ينتابها من حالات وازمات جراء تلك المجازر البشرية.

وتعود الفنتازية وتحط ظلالها في الرواية فتتسع دائرة التخييل حتى تصل الى حد أنسنة الأماكن فتصبح للاماكن أوصافاً إنسانية فتتحول من طبيعتها الجامدة الى كائن حي من باب المجاز لا الحقيقة(قفصي، ٢٠١٣: ١٦١): ((لم أستطع أن انطقه اليوم، انا الذي استنطق الشوارع والأزقة،

كيف أعجز اليوم عن استنطاق ظل ثائر، هي فعلاً فنتازيا غريبة))(الرواية: ١٢٦)، فنجد حالة العجز اصابت الشخصية الثائرة (الصحفي قاسم) امام صاحب المجلة الانتهازي، ذلك الثائر الذي كان مدافعاً عن قضايا وطنه –العراق– وخادماً لابنائه، الا أنهم أعدموا قلمه وحبسوا صوته، حتى وقف عاجزاً عن استنطاقه واسترداد حقه والذود عنه.

وبعد رحلة طويلة بين بغداد وموسكو وفرنسا، وبين تشظيات الذات والظلال والعاهات التي تمر بها شخصيات الرواية، يخترق الظل –في النهاية– بالشخصية حتى التلاحم بل الاختراق والتوحد: ((التصق ظلي بي لدرجة أشعرني أنه اخترقني:

–وأين قاسم؟

أمسك بيدي وقربني من مرآة في الصالة

–كلانا ظلٌ يبحث عن جميلة))(الرواية: ص٣٨٠).

فاعتماد التخييل على المرايا جاء لتسليط الضوء على الجوانب الخفية للشخصية الروائية، وسبر اغوارها والكشف عن خباياها، فأشارت المرآة الى تشظي ذات الفرد، الباحث عن بصيص أمل ينقذ ضياعه ويلم تشتته، فجميلة/ الفتاة المتخيلة لم تكن سوى رمزاً لـ(بغداد)، العاصمة التي فقدت مكانتها العالية وحضارتها، وعانت من ويلات الحروب والسياسات الجائرة لا زالت حتى يومنا هذا.

٦–**الشعر**: يرى النقاد على الرغم من ((انفتاح الثقافة العربية على اشكال أدبية متنوعة، التي مثلت مساحات حرة للتعبير الإبداعي، ومع ذلك، ظل الشعر ديوان العرب وفنهم الأول، الذي حفظ لغتهم وخلّد أخبارهم وبصمتهم الثقافية المميزة، فكان ولا يزال مسرحاً يظهرون فيه قدراتهم البلاغية المتفاوتة، وبراعاتهم التصويرية المدهشة))(السيد، ٢٠٢٥: www.albayan.com)، ولم تكن الرواية بمنأى عن هذا الانفتاح كونها من اكثر الاجناس الأدبية القادرة على التداخل الاجناسي مع غيرها من اشكال التعبير والتصوير ولا سيما الشعر منها، لذا جاءت الرواية متشعبة بالكثير من الاشعار المختلفة المضامين والاهداف، والمتفاوتة في القيمة الفنية، والكاتبة لم تحتج بالشعراء والشعر العربي فحسب للوصول الى أهدافها ومضامينها الموضوعية، بل نهلت الشعر من ثقافات أخرى، وهذا ما سنتناوله من خلال الاستشهاد بالشعر العربي والغربي.

تستعين الكاتبة بأبيات قصيرة من قصيدة أنشودة المطر للشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب، الذي حفل سجله العاطفي بالعذابات والأوجاع: ((تذكرت قصيدة بدر شاكر السياب (بالأمس حين مررت بالمقهى سمعتك يا عراق وكنت دورة أسطوانة) انا اليوم احدق في الأغاني ابحث عن بغداد فيها، وعن الذي يجعلني اكتب قصيدة او اغنية من الجراح))(الرواية:

ص٢٩٩)، فجاءت القصيدة تعبيراً لحالة الانسان في رحلة اغترابه الروحي وتغربه المكاني، فالقارئ حين يقرأ هذه الابيات يدرك مدى المرارة والالم التي تعانيه الشخصية – لاسيما العراقي– جراء غربتي الروح والجسد، فالأولى وقعها على الذات اشد إيلاماً من الثانية، فضلاً عن التذمر حيال أوضاع العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عانى منها جميع أبناء الوطن منذ القديم وحتى وقتنا الحالي.

وتورد بين الفينة والأخرى في طيات روايتها –بين بغداد وظلي– أشعار لشعراء عالميين ومن ثقافات متنوعة، توظفها في سياقات مختلفة، فنجدها تثري نصها بشعر للشاعر التركي (ناظم حكمت) هذا الشاعر الشيوعي الذي عارض النظام الاتاتوركي آنذاك، وعانى ما عاناه من وهو يتأرجح بين ويلات السجن والمنفى بسبب أفكاره وكتاباته المناوئة للحكم السياسي والأوضاع المتردية في البلاد ((على الاريكة قرب فتاة شقراء جلستُ استرجع ما قرأت (لناظم حكمت) قائلاً: ((تعال من فضلك قالت: تعال من فضلك، قالت، وابقَ، قالت: ابتسم، قالت: ومُت، جئتُ بقيتُ، ابتسمتُ، مِتُ)، هل سأموت في رحلة من رحلاتي، أم متُ حين خرجتُ؟))(الرواية: ص١٧٧)، فتوظيف حكمت ومقطوعته الشعرية له دلالات عميقة منها علاقة الشخصية بوطنه والدفاع عنه بأفكاره التحررية، اما الدلالة الأخرى هي المأساة الكبرى التي يعيشها هؤلاء الاناس جراء السلطة الطاغية والسياسة الغاشية.

تتوالى في النص الروائي استحضارات شعرية أخرى أسهمت في اثراء الرواية بدلالات عميقة ذات اثر في إيصال رسالة رحلتها الى المتلقي، فنجد الكاتبة احسن اختيارها مرة ثانية مع (الكسندر بوشكين) الروسي الذي عاش شاعراً ومات ثائراً ((حتماً سأفعل الشيء ذاته في الطائرة الأخرى، متشوق جداً لرؤية العالم الروسي، فقد عرفناه من خلال شعرائه وكتابه وفنانيه الكبار، ومن خلال ثوراته (أجل أحببتكِ صامتاً يائساً، أحببتكِ في خجلٍ منك، أو في غيرة مضنية) الله عليك يا بوشكين كيف أضأت الغيرة))(الرواية: ص١٧٣)، فتحاول الكاتبة من خلال هذا النص ان تربط بين مناسبة بوشكين وشخصيتها الروائية (قاسم) الذي سُرق منه وطنه وحبيبته.

ولم تتوقف الرحلة الشعرية عند هذا الحد بل نجده –الشعر– يتكاثف في الخطاب الروائي حتى يصبح وسيلة للتعبير ووصف التجربة وتصوير المواقف الانفعالية لشخصيات الرواية ((كنت أردد في سري أشعار للشاعر الفرنسي (إيف بونفورا) (ابتكرني، أو لعلكِ تضاعفيني))(الرواية: ص٣٢٧)، فالشخصية تحاول البحث عن ذاتها من خلال ابتكارها من جديد، وثم تستشهد الكاتبة بشاعر فرنسي اخر الا وهو (بول ايلورا) عندما اشتدت مأساة الشخصية الرئيسة (الصحفي) اثناء وجهته الاخيرة (فرنسا) ((واستمر صوتانا، نقرأ لشعراء آخرين (إيلورا) (التعظيمات قد نالت من

الكرامة، والأحذية قد نالت من نزهاتنا) فعلاً يا إيلور كل ما قلته واقعنا))(الرواية: ص٣٢٧)، حيث عكست هذه الكلمات حالات القهر والذل والاستلاب التي يعيشها الانسان في كل مكان وزمان.

الخاتمة

لم يعد الابداع الروائي مجرد عمل سردي قائم على الحكي، بل أصبح مع مرور الوقت فن له رسالاته وخطاباته كما في عينة البحث، إنّ رواية:

١-(بين بغداد وظلي) تجربة سردية حداثية، وظاهرة روائية معاصرة، استطاعت الكاتبة (وفاء عبد الرزاق) تسليط الضوء على العديد من القضايا الثقافية والمشكلات الإنسانية، تتميز فيها الفضاءات وتتشعب العلاقات مع مكونات الخطاب الرحلي، كل ذلك وفق مسار تخييلي لا ينقطع عن الواقع ولا تكاد تنعزل عنه، مع إضفاء عنصر التشويق وجذب انتباه القارئ للأحداث والمغامرات.

٢-جاء توظيف السفر ومكونات الرحلة من أجل عرض أوجه التشابه والاختلاف بين الانا والأخر، وبين هوية العربي والآخر الغربي، والتركيز على البنية المكانية كمسرح للاحداث.

٣-تنوعت آليات السرد في الرواية بين المتناوب والمنقطع والمتتابع، حسب الاحداث والمواقف التي تتطلبها الرحلة، فضلاً عن اعتمادها على السرد التوثيقي لتوثيق التاريخ والحقائق والاحداث.

٤-تنوع عنصر الحوار في الرواية بين حوارات مونولوجية وديالوجية ومناجاة النفس، وهذا عائد الى المواقف والاحداث التي تتطلبها، الا أن اللغة العربية طغت على جميع الحوارات رغم ان الرحلة كانت لاماكن الغرب (موسكو وفرنسا) والتقاء شخصيات مختلفة الهويات، بقيت الرواية محافظة على الهوية العربية.

٥-استعملت الكاتبة عنصر الوصف بطريقة انتقائية دقيقة، اذ كانت تتعمق في وصف كل شاردة وواردة بعين شخصياتها الروائية، خصوصاً عند وصف الأماكن والأشياء، وقدمتها بعين المصور المحترف في التصوير والابتكار.

٦-وفقت الرواية في تقديم معارف ومعلومات قيمة وشيقة عن أماكن متعددة للرحلة سواء داخل العراق أم خارجه، ومن جوانب متعددة كالدينية والسياسية والحضارية والتاريخية والثقافية.. الخ، التي رُبّما كانت حديثة العهد والمعرفة عند القارئ والمتلقي.

٧-وإن عنصر التخييل جاء في صور ثلاث: الاظلال والمرايا والفنتازيا، الا انه لم ينفصل عن الواقع، فقد استطاعت الكاتبة ان تصور العالم الحقيقي المرير بعنصر متخيل، من خلال وعيها بطرح قضايا ومشكلات عصرها، ومزجها بالخيال وربطها مع الواقع.

٨-ان التفاعل النصي بين الخطاب الروائي والاقتباس الشعري جاء موفقاً ومنسجماً مع الشخصيات والمواقف التي مرت بها الخطاطة السردية، فنعصر الشعر حقق للرواية شعريتها وللدلالة رمزيتها.

٩-واخيراً يمكننا القول ان رواية (بين بغداد وظلي) عمل رحلي روائي ضخم، يستطيع الباحث ان يتناول كل عنصر من عناصرها الروائية ومكوناته الرحلية على حدة، فهي ابداع نسوي يدخل في حيز الابداعات الادبية العراقية والعربية بل حتى العالمية.

المصادر والمراجع:

١)امير منصر وكمال بولعسل، الرواية الرحلية العربية المعاصرة من التعريف الى التصنيف إشكالية الانتماء والتجنيس، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الجزائر، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ٢٠٢١م.

٢)جابر محمد مدخلي، السرد بضمير المتكلم في الرواية ومؤثراته الإبداعية، مقال (www.alriyadh.com)، تاريخ الزيارة (٢٠٢٥/١/٨م).

٣)سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار رؤية، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠٦م.

٤)سهام سديرة، أدب الرحلة الماهية والبنية والشكل، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ٢٠١٨م.

٥)السيد رمضان السيد، ايقاعات شعرية عزفت على وتر الجمال، مقال منشور على الصفحة الالكترونية (www.albayan.com)، تاريخ الزيارة ٢٠٢٥/١/٢٥م.

٦)شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، دار رؤية، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠٦م.

٧)عبد الجبار وحامد أشرف همداني، مكونات خطاب أدب الرحلات وخصائصه، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور- باكستان، العدد السابع والعشرون، ٢٠٢٠م.

٨)عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٩٦م.

٩)عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٩٨م.

١٠)فن الشعر، ارسطو، تر: شكري عياد، دار الكتاب العرب، القاهرة- مصر، ١٩٨٧م.

١١)مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

١٢)محمد إسماعيل عبد العليم، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ضمن جائزة الطيب صالح للابداع الكتابي، الدورة الثامنة، السودان، ٢٠١٨م.

١٣)محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي، تونس، ط١، ٢٠١٠م.

١٤)محمد حاتمي، في الخطاب الرحلي، مقال منشور على الموقع (www.aljabriabed.net)، تاريخ الزيارة ٢٠٢٥/١/١٢م.

١٥)مكونات خطاب ادب الرحلة وخصائصه، عبد الجبار وحامد اشرف همداني، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور- باكستان، ع (٢٧)، ٢٠٢٠م.

١٦)نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الاندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر، تق: صلاح جرار، دار المأمون، عمان- الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.

١٧)الرواية العراقية صورة الوجع العراقي ثماني سنوات في عمر الرواية العراقية(٢٠٠٤-٢٠١٢)، حسين السكاف، الروسم، بغداد- العراق، ط١، ٢٠١٤م.

١٨)الذات والمجتمع في شعر امل دنقل دراسة في الانساق الثقافية، موج يوسف، دار ابجد، بابل– العراق، ط١، ٢٠٢٢م.
١٩)شعرية الوصف في ادب الرحلة(رحلة ابن بطوطة)أنموذجاً، فوزية قفصي، التواصل في اللغات والآداب، العدد(٣٧)، ٢٠١٣م.

Sources and References:

(١Amir Mansour and Kamal Boulassal, "The Contemporary Arab Travel Novel: From Definition to Classification: The Problem of Belonging and Genre," Journal of Arabic Language Sciences and Literature, Algeria, Volume Thirteen, Issue One, 2021.
(٢Jaber Muhammad Madkhali, "First-Person Narrative in the Novel and Its Creative Influences," article (www.alriyadh.com), accessed January 8, 2025.
(٣Saeed Yaqtin, "Arab Narrative: Concepts and Manifestations," Dar Ru'ya, Cairo, Egypt, 1st ed., 2006.
(٤Siham Sedira, "Travel Literature: Essence, Structure, and Form," Journal of Literary Studies, Algeria, Volume Ten, Issue Two, 2018.
(٥Sayyid Ramadan al-Sayyid, "Poetic Rhythms Played on the Chord of Beauty," article published on the website (www.albayan.com), accessed January 25, 2025.
(٦Shuaib Halifi, The Journey in Arabic Literature, Dar Ru'ya, Cairo, Egypt, 1st ed., 2006.
(٧Abdul Jabbar and Hamid Ashraf Hamdani, Components and Characteristics of Travel Literature Discourse, Journal of the Arabic Department, University of the Punjab, Lahore, Pakistan, Issue 27, 2020.
(٨Abdul Rahim Modan, The Literature of the Journey, Dar Al Thaqafa, Casablanca, Morocco, 1st ed., 1996.
(٩Abdul Malik Murtad, In the Theory of the Novel: A Study of Narrative Techniques, World of Knowledge Series, National Council for Culture, Kuwait, 1998.
(١٠The Art of Poetry, Aristotle, trans. Shukri Ayyad, Dar Al Kitab Al Arab, Cairo, Egypt, 1987.
(١١Magdy Wahba and Kamel Al Mohandes, Dictionary of Arabic Terms in Language and Literature, Lebanon Library, Beirut, Lebanon, 2nd ed., 1984.
(١٢Muhammad Ismail Abdel-Aleem, Narrative Techniques: The Basis of Travel Literature, as part of the Tayeb Salih Award for Creative Writing, 8th edition, Sudan, 2018.
(١٣Muhammad Al-Qadi and others, Dictionary of Narratives, Dar Muhammad Ali, Tunis, 1st ed., 2010.
(١٤Muhammad Hatami, On Travel Discourse, an article published on the website (www.aljabriabed.net), accessed January 12, 2025.
(١٥Components and Characteristics of Travel Literature Discourse, Abdul-Jabbar and Hamid Ashraf Hamdani, Journal of the Arabic Department, University of the Punjab, Lahore, Pakistan, No. (27), 2020.
(١٦Nawal Abdul-Rahman Al-Shawabkeh, Andalusian and Moroccan Travel Literature until the End of the Nineteenth Century, trans. Salah Jarrar, Dar Al-Ma'mun, Amman, Jordan, 1st ed., 2008.
(١٧The Iraqi Novel: An Image of Iraqi Pain: Eight Years in the Life of the Iraqi Novel (2004-2012), Hussein Al-Skaf, Al-Rusum, Baghdad, Iraq, 1st ed., 2014.
(١٨The Self and Society in the Poetry of Amal Dunqul: A Study of Cultural Systems, Mouj Youssef, Abjad House, Babylon, Iraq, 1st ed., 2022.
(١٩The Poetics of Description in Travel Literature (Ibn Battuta's Journey) as a Model, Fawzia Qafsi, Communication in Languages and Literature, Issue (37), 2013.